الدَّلالاتُ القُرآنيَّةُ الواردةُ في ردِّ الإنسانِ إلى أرذلِ العُمرِ: سيّدنا زكريا (عليه السلام) أنموذجًا

م. د. أحمد علي دايح الفهداوي

رئاسة جامعة الانبار – شعبة الإرشاد النفسي الجامعي

ahmed.dayeh@uoanbar.edu.iq

تاريخ الاستلام 2026/4/3 تاريخ القبول 2026/5/17 تاريخ النشر 2026/8/30

الملخص:

قد مضت سنة الله تعالى في خلقهِ أن يمرّ الإنسانُ بأطوار متعددة من عمره، منذ خلقه في رحم أمه، إذ مرَّ بأحوال متفاوتة ما بين ضعف وقوة، حتى يصل إلى الهرم بعد الفتوة، والوقوف على ملامح مرحلة أرذل العمر في الآيات القرآنية يجعل القارئ يقفُ متأمِّلًا لعظمة كلام المولى (عزَّ وجلَّ) في ذكر هذه التغيرات التي لم يصل العلم إليها إلا في الآونة الأخيرة، ليبرهن على أن هذا القران هو كلام الله تعالى الذي أوحاه إلى خيرة خلقه. وعند البحث والاستقراء في ثنايا الآيات القرآنية المتعلقة بهذه المرحلة وجدتُ أنّ القران الكريم قد بين لنا الملامح والتغيرات التي تحصل للإنسان فيها وبتسلسل لكلّ ما يمرّ به الإنسان من تغيرات بأطوار حياته، وتناولها بكلّ تفاصيلها حتى الحقوق التي يتمتع بها الإنسان عند وصوله إلى هذه المرحلة المهمة، فينبغي للإنسان ألّا يغترَّ بما أنعم اللهُ عليه من علم أو قوة بدنيّة أو عقليّة وغيرها من مغريات الحياة التي تورث العجبَ في نفس الإنسان. والتّدرجُ الحاصل في دورة حياة الإنسان ما هو إلّا سنة الله تعالى في خلقهِ.

الكلمات المفتاحية: أرذلُ العُمرِ، الشّيخوخةُ، اشتعال الرّأس، الذُّريّة، زكريا، الوهنُ.

Quranic Connotations of "Ardhal al-Umur: Prophet Zakariya (Peace Be Upon Him) as a Model

Lecturer Dr. Ahmed Ali Dayeh Al-Fahdawi

Presidency of the University of Anbar – University Psychological Counseling Division

Abstract:

It is God Almighty's way that man goes through multiple stages of his life from the time he is created in his mother's womb, where he goes through varying conditions between weakness and strength until he reaches old age after youth. Examining the features of the most decrepit stage of life in the Quranic verses makes the reader pause to contemplate the greatness of the words of the Almighty (may He be glorified and exalted) Mentioning these

changes, which science has only recently discovered, serves to demonstrate that this Quran is indeed the word of God Almighty, revealed to the best of His creation. Upon examining and analyzing the Quranic verses related to this period, we find that the Holy Quran has clearly outlined the characteristics and changes that occur in humankind, encompassing all the transformations a person undergoes throughout the stages of their life. It addresses this in detail, including the rights a person enjoys upon reaching this stage. A person should not be deceived by the knowledge, physical strength, or intellect that God has bestowed upon them, nor by any other worldly temptations that might lead to arrogance. The gradual progression through the human life cycle is simply God's way with His creation.

Keywords: Feeblest Age (Senility), Aging, Graying of Hair (Flaming Hoariness), Progeny (Offspring), Zechariah, Physical Frailty.

المقدمة

الحمدُ للهِ الذي جعل أَعمارنا مواسم أعمالنا، والرّابح فيها منِ امتثل للطاعة، والهالك فيها من عصى الله وباعه، والصلاة والسلام على من بلغنا بقيام الساعة، محمد وعلى آله وصحبه وأتباعه.

أمّا بعدُ:

فقد مضت سنة الله تعالى في خلقه أن يمرّ الإنسان بأطوار متعددة من عمره، منذ خلقه في رحِم أمّه انتهاءً لمرحلة تسبق دخوله إلى قبره، إذ يمرّ بأحوال متفاوتة ما بين ضعف وقوة حتى يصل إلى الهرم بعد الفتوة، قال تعالى: " اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ [1].

فالوقوف على ملامح مرحلة أرذل العمر في الآيات القرآنية، يجعل القارئ لهذا البحث يقف متأمّلًا لعظمة كلام المولى –عزّ وجلَّ–في ذكر هذه التغيرات التي لم يصل العلم إليها إلا في الآونة الأخيرة، ليبرهن على أنَّ هذا القرآن هو كلام الله الذي أوحاه إلى خيرة خلقه كتابًا يُعدّ أصل العلوم بأجمعها، ومنهل العلوم وأكملها.

وعند البحث والاستقراء في ثنايا الآيات القرآنية المتعلقة بهذه المرحلة، وجدتُ أنَّ القرآن الكريم قد بين لنا الملامح والتغيرات التي تحصل للإنسان فيها، وبتسلسل لكل ما يمر به الإنسان من تغيرات بأطوار

حياته، بأدق العبارات وأبلغ الكلمات، وتناولها بكل تفاصيلها حتى الحقوق التي يتمتع بها الإنسان عند وصوله إلى هذه المرحلة.

إنَّ الذي دفعني لاختيار هذا الموضوع قلة البحث والدراسات في هذه المرحلة المهمة، ولألفت الأنظار حول ما أودعه الله–سبحانه وتعالى–في كتابه الكريم من أسرار، ومن أجل خدمة هذا الآيات البينات عن طريق محاولتي العلمية لتحديد نظرية علمية قرآنية لعلم نفس الإنسان في هذه المرحلة عن طريق الاعتماد على منهج التحليل النفسي لملامح الإنسان عند وصوله إلى هذه المرحلة، إذ تعتمد هذه الدراسة في معالجتها لموضوع (الدلالات القرآنية في رد الإنسان إلى أرذل العمر) على المنهج الوصفي التحليلي؛ وذلك بتتبع السياقات القرآنيّة التي تناولت وهن الإنسان في مراحل كبره، مع التركيز على قصة نبي الله زكريا (عليه السلام) بوصفها نموذجًا تطبيقيًّا؛لكون البحث يتكلم فقط عن حالة سيدنا زكريا بينما توجد هناك حالات مشابهة لمرحلة العقم والولادة في الشيخوخة مثل زوجة سيدنا إبراهيم عليه السلام، والوهن والضعف لشخصيات أخرى. كما توظف الدراسة أدوات المنهج الاستنباطي لاستظهار المعاني الإيمانية والدلالات النفسية والتربوية الكامنة في الخطاب القرآني، مع الاستئناس بآليات التفسير الموضوعي التي تسمح بجمع أطراف القصة ومقارنتها بالدلالة اللغوية والشرعية لمصطلح (أرذل العمر)، وصولا إلى رؤية استقرائية شاملة لما تفرّد به النص القرآني في هذا الجانب.

هذا وقد اقتضت طبيعة البحث تقسيمه إلى النحو الآتي:

فقد قسمتُ البحث إلى مبحثين: فأمّا المبحث الأول: الدّلالاتُ النفسية ومفهوم ردِّ الإنسان إلى أرذل العُمر فقد قسم إلى أربعة مطالب:

تكلمت فيه في المطلب الأول منه على تعريف الدلالة النفسية لغة واصطلاحًا.

وأمَّا المطلب الثاني فتعريف بأرذل العمر.

وأمّا المطلب الثالث فتكلمت فيه على دلالات الألفاظ القرآنية الملازمة لمرحلة "أرذل العمر".

أما المطلب الرابع فتكلمت فيه على الملامح الظاهرة التي تظهر على الإنسان في أرذل العمر.

وأمّا المبحث الثاني فكان عن مشاهد الشيخوخة عند زكريا (عليه السلام)، وفيه ثلاثة مطالب:

تكلمت في الأول منها على المناجاة والاعتراف بالضعف.

وأمّا الثاني فكان عن الدلالة النفسية في وهن العظم.

وأما المطلب الثالث فكان عن الدلالة النفسية في الاعتراف بكبر سن الزوجة والبشارة بالذرية.

ثمّ ختمتُ البحث بأهم النتائج، وأعقبتها بالمصادر والمراجع.

فما كان فيه من توفيق فمن الله وحده، وما كان فيه من خطأ فهذا جهد المُقلّ، وعلى اللهِ التّكلان.

وصلّى اللهُ على نبيّنا مُحمّدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين.

المبحث الأول

الدّلالاتُ النفسية ومفهوم ردِّ الإنسان إلى أرذل العُمر

المطلب الأول: تعريف الدلالة النفسية في اللغة والاصطلاح

أولًا: الدلالة في اللغة: "(الدال واللام) أصلان أحدهما:

يدل على إبانة الشيء بأمارة تتعلمها، تقول: دللتُ فلانًا على الطريق، أي: بينته له، والدليل هو ما يستدل به، ومنه قوله" تعالى: فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ"[2].

والآخر اضطراب في الشيء، تقول: تدليل الشيء، أي: تحرك واضطرب" [3].

ثانيًا: والدلالة في الاصطلاح: هي "كون اللفظ بحيث إذا أطلق فهم منه المعنى من كان عالما بوضعه له"[4].

وقد عرّف أيضا الدليل بأنه "الْمُوَصِّلُ بِصَحِيحِ النَّظَرِ فِيهِ إِلَى الْمَطْلُوبِ".

قَالَ إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ:" وَيُسَمَّى دَلَالَةً وَمُسْتَدَلًّا بِهِ، وَحُجَّةً، وَسُلْطَانًا، وَبُرْهَانًا وَبَيَانًا"[5].

وأرى أنَّ الدلالة تستعمل لإثبات حقيقة أو أَمر مبهم، وتم ذكرها هنا للاستدلال بها على التغيرات النفسية التي تنشأ لدى الإنسان عند وصوله إلى المرحلة الأخيرة من عمره.

والدلالة النفسية اصطلاحًا: "هي الكيفية التي تجري بها اشباع الحاجات أو الغرائز أو هي الكيفية التي تربط دوافع الاشباع بالمفاهيم" [6].

وأمّا الدلالة النفسية للألفاظ "فذهبُ الدكتور إبراهيم أنيس إلى أنَّ الدلالة النفسية للمفردات لا تنحصر في النطاق الذاتي أو التجربة الشخصية العابرة للمتكلم، بل هي (سمة موضوعية) متأصلة في الكيان اللغوي ذاته.

ورأى أنَّ الكلمة تحمل في طياتها (بنيةً وجرسًا وإيحاءً) دلالاتٍ إضافية مستقرة يدركها المتلقي الواعي لغويًّا؛ وهي ما يُعرف بـ (الدلالات الثواني). هذه الدلالات تتخطى التعيين الحرفي المباشر لتخلق أثرًا

شعوريًّا موحّدًا، يشترك في إدراكه المتأملون، بوصفه فيضًا دلاليًّا ينبع من خصائص اللفظ الصوتية والتركيبية قبل أن يكون انعكاسًا لموقف فردي " [7].

المطلب الثاني: تعريف مفهوم أرذل العمر في اللغة والاصطلاح وعند علماء التفسير

أولًا: تعريف مفهوم أرذل العمر في اللغة والاصطلاح

أرذل في اللغة: (الراء والذال واللام)، كلمة تدلّ على معنيّين:

الأول: الضعف، ومنه قوله تعالى: وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ " [8]، أي: آخره في حال الكبر والعجز والخرف.

والآخر: الدون من الناس، ومنه قوله تعالى: "قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ" [9]، والأرذل من كل شيء الرديء منه [10].

وقال ابنُ منظور: "أرذل العمر تطلقه العرب على من وصل إلى مرحلة الشيخوخة، وهو من استبانت فيه السن وظهر عليه الشيب، وبعضهم يطلقه على من جاوز الخمسين، وقد يطلق عليه (هرم وكهل ومسن) وجميع هذه الالفاظ تطلق على الفرد عند وصوله إلى أرذل العمر " [11].

ثانيًا: مفهوم أرذل العمر عند علماء التفسير

1- قال الطبري: "المراد بأرذل العمر، أي: عودة الإنسان كهيئته في حال صباه، لا يعقل من بعد عقله الأول شيئًا" [12].

2- "صوّر الثعلبي مرحلة 'أرذل العمر' بوصفها حركةً ارتدادية في المنحنى البيولوجي للإنسان؛ حيث يتحول المسار من ذروة الفتوة والنمو إلى هاوية العجز والاضمحلال.

واستعمل الثعلبي تعبيرات دقيقة لوصف هذا التحول، مثل 'البلى والخلوقة'، ليشير إلى فقدان الجسد لنضارته وحيويته، وهي حالة يُطلق عليها 'النكس' في الكيان البشري؛ حيث يرتدُّ المرء إلى حالة من الضعف تشبه بدايات الطفولة لكنها تفتقر إلى نمو القوى، مما يجعل من هذه المرحلة تجسيدًا للتراجع الشامل في الخصائص الجسدية والنفسية للمرء" [13].

3- وقال ابْنُ عطيّة: المراد بأرذل العمر، هو العمر" الذي تفسد فيه الحواس الإنسان، ويختل النطق" [14].

4-قدّم أبو حيان الأندلسي رؤيةً دقيقة لمرحلة (أرذل العمر)، واصفًا إياها بأنها حالة من (الارتكاس العمري) الذي يعيد المرء إلى ملامح الطفولة الأولى، حيث يتلازم فيها ضعفُ الهيكل الجسدي مع انحسار الملكات الذهنية والإدراكية. وتميز طرحُ أبي حيان بتأكيده على 'الفوارق الفردية'؛ إذ رأى أنَّ هذه المرحلة ليست قدرًا زمنيا ثابتا يرتبط برقمٍ محدد من السنين، بل هي حالة نسبية تتفاوت من شخص لآخر. فقد يمتد العمر بالمرء إلى قرنٍ من الزمان وهو محتفظٌ بوقار عقله وحضور ذهنه، في حين قد يهاجم الخرفُ والضعفُ آخرين في مراحل عمرية تسبق ذلك بكثير، مما يجعل (الأرذل) وصفا للحالة الوظيفية للجسد والعقل لا لمجرد السنين [15].

ويوافق هذه الأقوال أحد علماء النفس بتعريفه لمرحلة أرذل العمر، قائلًا: "هي فترة الانحدار الجسمي والعقلي والإعاقة الاجتماعية والثبات في السلوك" [16].

المطلب الثالث: دلالات الألفاظ القرآنية الملازمة لمرحلة "أرذل العمر"

تكتسب الألفاظ في السياق القرآني أبعادًا تتجاوز المعنى المعجمي الجامد، ومن ذلك لفظة (العاقر) التي ارتبطت بحالة زكريا عليه السلام وزوجه. وغيرها من الألفاظ التي سيتم ذكرها

أولًا: لفظة "العاقر" (الدلالة والمعنى)

تُشير "العاقر" في أصلها اللغوي إلى الانقطاع والمنع، وهي تُطلق على المرأة والرجل الذين لا يولد لهما [17].

وقد استُعملت في النص القرآني؛ لوصف حالة زوج زكريا عليه السلام كعائق بيولوجي اجتمع مع عائق "أرذل العمر" لزكريا نفسه، مما يجعل الإنجاب في منظار العقل مستحيلًا وتحمل اللفظة دلالة "العقر" وهو القطع؛ فكأنَّ الأسباب المادية التي تُفضي إلى الولادة قد قُطعت تمامًا[18].

وفي هذا السياق، تبرز المعجزة الربانية في "إصلاح" هذا القطع وتحويل العقر إلى نماء، مما يؤكد أن الإرادة الإلهية لا يحجبها عائق مادي سواء كان ذاتياً (العقر) أو زمنيًّا (أرذل العمر).

وأن القرآن الكريم استعمل لفظ "امرأتي عاقر" على لسان زكريا عليه السلام في مقام (بث الشكوى وإظهار العجز)، بينما استعمل في مقام (البشارة والامتنان) قوله: {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا

لَهُ زَوْجَهُ}؛ فاستبدل وصف "العقر" بلفظ "الإصلاح" لبيان زوال العلة وتحقق حيث رسم القرآن بها لوحة دقيقة لمرحلة (أرذل العمر) في نموذج سيدنا زكريا (عليه السلام).

ثانيًا: وَهَنَ العَظْمُ

يُعبر "الوهن" في اللغة عن الضعف الذي يصيب الجوهر والداخل قبل الخارج[19]. واختيار "العظم" تحديدًا؛ دلالة على وصول الضعف إلى عماد الجسد وأقوى أجزائه؛ فإذا وهن الحامل (العظم) تداعى المحمول (بقية الجسد). وهذا التعبير يمثل قمة الدلالة على التراجع البدني في أرذل العمر

ثالثًا: اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا

استعارة قرآنية بليغة تُشبه بياض الشيب بنور النار في سرعة انتشارها ونفاذها[20].

والدلالة السياقية هنا توحي بأن الشيب لم يعد "خصلات" بل صار شمولًا غطى الرأس، وهو إعلان بصري عن استهلاك الزمن لطاقة الإنسان، وبلوغه مرحلة يصعب معها الرجوع للوراء.

رابعًا: بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا

"العتي" هو الوصول إلى حالة من اليباس والجفاف في المفاصل والجلد، حتى يقال: "عتا العود" إذا جف وصلب[21]. وهي تصف المرحلة المتقدمة من العمر التي تفقد فيها الأعضاء مرونتها وقدرتها الوظيفية، مما يجعل "العتي" أبلغ من مجرد كلمة "كبير."

خامسًا: نِدَاءً خَفِيًّا

على الرغم من أنها لا تصف الجسد، إلا أنها دلالة على "أدب الضعف" في أرذل العمر؛ فالصوت الخفي يتناسب مع "وهن العظم"، ويُبرز الانكسار الوجداني الذي سيتم ذكره في (الإفاقة الوجدانية). هو صوت الروح التي لم تضعف رغم ضعف الحنجرة والجسم.

وتجدر الإشارة إلى أن القرآن في قصة زكريا لم يقل: "شخت" أو "هرمت" مباشرة في دعائه، بل استعمل تركيبات تصف "أثر الزمن في المادة" (العظم، الشعر، المفاصل)؛ ليعظم من حجم المعجزة القادمة (يحيى)!

المطلب الرابع: الملامح والمظاهر التي تبدو على الإنسان في مرحلة أرذل العمر

لقد خاضَ علماء المسلمين وعلماء النفس في مرحلة التقدم في العمر، باعتبارها الخاتمة النهائية لحياة الإنسان، التي تنتهي بموته فهي تحمل في طياتها تركيزاً شديدًا لكل مظاهر التغير في المراحل السابقة.

أولاً: ملامح ومظاهر هذه المرحلة عند علماء المسلمين

1- إنّ هذه المرحلة قد وصفها أحد علماء المسلمين بفصل الخريف، ففيها يقلّ حجم الإنسان ويضعف، ثمّ يموت كالنبات تمامًا، ثمّ يبعثه الله تعالى كما بعث النبات تمامًا، ومصداق ذلك قوله تعالى: " اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ "[22].

2- إنَّ هذه المرحلة يبدأ الجسد فيها بالضعف والهزال، ويظل فيها الإنسان مشغولًا بلقاء ربّه أكثر من المراحل السابقة.

3- "تُمثّل مرحلة الكهولة المحطة الأكثر خطورة في تشكيل الملامح النهائية لهوية المرء؛ إذ تتحول فيها الممارسات المتكررة من مجرد عادات عارضة إلى (طباعٍ متأصلة) تندمج في البنية النفسية للإنسان ويصعب تحويرها. ورأى ابن القيم وعلي صبح أنَّ هذه السن هي ثمرةُ الزرع السلوكي السابق؛ فمن تدرّج في مدارج الاستقامة في مقتبل عمره، استوت شخصيته في الأربعين على قاعدة من الحكمة والاتزان، ليصبح نموذجاً يُقتدى به. وفي المقابل، فإنَّ الانغماس في المسالك السلبية يؤدي إلى تحجرها في النفس لتصبح طبيعة ثانية تُهيمن على صاحبها. وبناءً على ذلك، استقر رأي المحققين على أنَّ بلوغ الأربعين هو (المؤشر المصيري) الذي يكشف عن المآلات الختامية للفرد؛ كونه يعكس المحصلة الكلية لما استودعه الإنسان في وعائه السلوكي عبر أطوار حياته الماضية "[23].

ثانياً: ملامح ومظاهر هذه المرحلة عند علماء النفس

1- "تكون انفعالاته ذاتية المركز، إذ يكون انفعال الفرد يدور حوله أكثر مما يدور حول غيره، فالإنسان في هذه المرحلة يندفع وتأخذه العاطفة على الموضوعات الخارجية والأحداث الاجتماعية، ويوجهها إلى ذاته وهذا من أبرز خصائص هذه المرحلة.

2- تكرار رواية قصص معينة اكتسبها في مدة حياته، متأملًا من ذلك رسم الطريق أمام الأشخاص ممن هم أصغر منه سنًّا، ليتخذوه قدوة، أو من أجل عرض المناخ الاجتماعي الذي يتعلق بفترة معينة من تاريخه السابق، أو من أجل تنبيه من حوله عن طريق عرض أخطائه الشخصية، إذا كان متواضعًا.

3- الاعتقاد بأن كل ما كان من الماضي أفضل مما هو عليه في وقته الحاضر، إذ يعرض ماضيه وهو معجبٌ به، بحيث تتوجه عاطفته إلى المراحل الأولى من عمره، الذي بمثابة اعتزاز لهذه المراحل، فضلًا عن ذلك قد يبدو تعظيمه واضحًا لجيل السابقين الذين عاصرهم متخذًا من ذلك ذريعة لتعظيم

نفسه، وعلى هذا يبدأ الفرد في هذه المرحلة من السخرية من الأجيال الأخرى، ويحاول فرض شخصيته في سيطرة غريبة حتى لا يظن من حوله أنَّه قد بدأ يضعف ويهدم.

4- لا يتحكم الفرد في هذه المرحلة تحكمًا صحيحًا في انفعالاته، ويعجز عن ضبط مشاعره وعواطفه، وتتميز انفعالاته بالعناد والتصلب بالرأي، وتجده يثار لأوهام لا حقيقة لها، ونجده أحيانًا يميل إلى المدح والاطراء، ثمّ ينقلب إلى الشعور بالاضطهاد والشكوى من تصرفات من حوله، وادعائه أنَّه الصواب دائمًا.

5- الشعور بالقلق ونوبات الحنين إلى الأموات الذين سبقوه إلى دار الآخرة، ويتصرف كأنه عابر سبيل يتوقع موته بأية لحظة.

6- اللامبالاة من الذات، إذ إنّه كثير ما يكون قد فقد أهدافه التي سبق أن رسمها لنفسه، لشعوره بأنه يمر بمرحلة مؤقتة سريعة الانتهاء.

7- كثيرًا ما يتجنب الفرد في هذه المدة البيئة المحيطة به، ويقف منها موقفًا لا يصدر منه أي انفعال معها، كأنَّه يشعر بشيء ما يفصله عن الأجيال السابقة، فكثير ما تتصف انفعالات الفرد في هذه المرحلة بالخمول وبلادة الحس، وعدم العمل على مساعدة الغير والتفاعل معهم" [24].

المبحث الثاني

الدلالات النفسية لمشاهد الشّيخوخة عند زكريا (عليه السلام)

"تُبرز المرويات التاريخية المكانة الدينية الرفيعة لزكريا (عليه السلام)؛ حيث اضطلع بمسؤولية القيادة والزعامة الروحية للأحبار والرهبان في عصره، وقد ارتبط بزوجته (شياع بنت فاقود) خالة السيدة مريم (عليها السلام).

وتُجمع الروايات على أنَّ الزوجين بلغا مرحلة من العمر انعدمت فيها فرص الإنجاب كليًّا وفق النواميس الكونية؛ إذ تُشير بعض الآثار إلى أنَّ عمر زكريا (عليه السلام) ناهز المئة والعشرين عامًا، بينما قاربت زوجته المئة (ثمانية وتسعين عاما).

وعلى الرغم من هذا التدهور الفسيولوجي والوهن الجسدي البالغ، إلا أنَّ زكريا (عليه السلام) ظلَّ متمسّكًا بآلية الدعاء بوصفها فعلا تعبديًّا يتجاوز المنطق المادي، محققا بذلك انتصارا روحيًّا على مشاعر القنوط واليأس التي تفرضها ظلال الشيخوخة المتقدمة " [25].

وقد تضمنت شخصية زكريا (عليه السلام) عدة مشاهد سنذكرها كما يأتي:

المطلب الأول: الدلالة النفسية في المناجاة واعترافه بالضعف والوهن في مرحلة الهرم

"تُمثّل مناجاة زكريا (عليه السلام) في قوله تعالى: "إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا" [26]، ذروة الكشف عن مكنونات النفس التي يمتزج فيها عجز البدن بيقين الروح.

إنَّ اختيار وصف 'الخفاء' لهذا النداء يحملُ أبعاداً سيكولوجيةً غائرة في العمق؛ فهو يجسدُ حالة من الانعزال الشعوري الكامل عن العالم المادي والارتقاء إلى فضاءات الاتصال المحض بالخالق.

في هذا المقام، يتحول الدعاء من صيغة الطلب اللساني إلى (بوحٍ وجداني) يستبطن أماني الفؤاد وخواطر الذات التي لا يدرك كنهها إلا الله.

وإنَّ لجوء زكريا (عليه السلام) إلى هذا النمط السري من التضرع يعكس رغبةً في توثيق 'الخصوصية الروحية'، حيث تتلاشى الضغوط الخارجية والقيود المنطقية للشيخوخة، لتنصهر المشاعر في استغراقٍ كامل يربط بين حقيقة الوهن البشري وبين سعة القدرة الإلهية المطلقة، مما يجعل الإسرار هنا أبلغ في الدلالة على الإخلاص والاضطرار النفسي " [27].

و"يُشيرُ فريقٌ من أهل التفسير . وفي مقدمتهم الإمام الماوردي . إلى أنَّ إسرار زكريا (عليه السلام) بالدعاء لم يكن نابعا من دوافع تعبدية فحسب، بل اشتمل على بُعدٍ نفسي يُصنف ضمن (التحصين الاجتماعي)؛ فقد سعى من خلال المناجاة الخفية إلى النأي بنفسه عن تقديرات المجتمع المحيط وتجنب انتقاداتهم (العذل).

ففي ظلّ المعطيات المادية التي تجعل من الإنجاب في تلك السن أمرًا مستحيلا، خشي زكريا أن يُرمى بالرعونة أو نقص الحكمة إذا ما جهر بطلبه أمام الناس؛ لذا، مثّل الإخفاء استراتيجيةً نفسية للتوفيق بين طموحه الفطري في نيل الذرية وبين الحفاظ على هيبته ومكانته الدينية الرفيعة؛ مفضلا أن يودع أمنياته في حضرة من لا تحكمه قوانين المادة، بعيدًا عن مواطن التعجب أو الملامة البشرية التي قد تشوش على صفاء لحظة الالتجاء "[28].

و"تبرز رؤية تفسيرية موازية تُرجع إخفاء زكريا (عليه السلام) لمناجاته إلى دوافع 'الأدب التعبدي' الصرف؛ حيث يُعدُّ الإسرار في هذا السياق تجلياً لأعلى درجات الإخلاص، وتقرباً إلى الخالق بما هو 'أحب وأزكى'.

ويؤكد قتادة في هذا الصدد أنَّ معيار القبول الرباني لا يرتبط بمستوى الصوت أو الجهر به، بل بمدى 'تقوى القلوب' وحضورها؛ فالحق سبحانه مطلعٌ على السر والعلن سواء، غير أنَّ للدعاء الخفي مزيةً نفسية وروحية في تجريد العبادة من شوائب الرياء وإظهار غاية الافتقار. وبناءً على ذلك، يُعدُّ نداء زكريا (عليه السلام) تجسيدًا عمليًّا للمنهج الذي أرساه القرآن الكريم في قوله تعالى: "ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً"[29]؛ إذ يغدو خفوت الصوت في هذا المشهد برهانا ساطعا على امتلاء الوجدان بالهيبة واليقين، وإدراكا لكون الإسرار أبلغ في التعبير عن صدق اللجوء والرهبة "[30].

و"يرى ابن كثير والزحيلي، أنَّ اختيار زكريا (عليه السلام) لنمط المناجاة السرية كان مدفوعًا بمرتكزين أساسيين؛ أولهما: مرتكزٌ إيماني يهدف إلى بلوغ أسمى مراتب الإخلاص والتجرد من الصوارف، إيمانا بأنَّ كتمان الحاجة أبعدُ عن شائبة الرياء وأدعى لاستنزال رحمات القبول.

أمّا المرتكز الاخر: فهو مرتكزٌ وقائي يستهدفُ التحصن من النقد الاجتماعي (العذل)؛ إذ إنَّ التماس الولد في مرحلة الشيخوخة المتأخرة يصطدمُ بالعرف المادي وقد يُقابل بالاستنكار أو السخرية لكونه تجاوزا للمألوف البشري. ومن هنا، استطاع زكريا (عليه السلام) عبر (النداء الخفي) أن يحقق توازنا دقيقا؛ فحفظ سريرة إخلاصه مع الخالق، وصان مكانته ووقاره من تأويلات الخلق، جاعلا من استغاثته شأنا قدسيًّا خالصا لا تصله مقاييس البشر القاصرة [31].

و"يستنبطُ سيد قطب دلالاتٍ نفسيةً بالغة العمق من نداء زكريا (عليه السلام)، واصفًا إيّاه بكونه حالة من (الانعتاق الشعوري) يُقصد به حالة "التجرد النفسي" التي يتجاوز فيها المؤمن إدراكه الحسي بالعجز البشري، لينفصل عن ضيق الأسباب المادية ويتصل بسعة القدرة الإلهية المطلقة، وهو في هذه الدراسة يمثل تحرر زكريا (عليه السلام) من قيود "الشيخوخة" و"العقم" إلى فضاء اليقين بـ (كن فيكون)[32]؛ حيث تتآلف في تلك اللحظة مرارةُ الحاجة الفطرية للولد مع يقينٍ إيماني لا يداخله القنوط.

ويرى سيد قطب في (الظلال) أنَّ اعتزال زكريا (عليه السلام) ومناجاته السرية يمثلان محاولةً لبثِّ الهموم التي (تنوء بها النفس)، التماسا لراحةِ الوجدان وسكينة القلب في كنفِ القدرة المطلقة.

ويحلل سيد قطب طبيعة هذا الالتجاء بوصفه 'تضرعاً يغشاه الحياء'؛ فهو يعبر عن أسمى آيات الأدب مع الذات الإلهية، إذ لا يجد الداعي الجرأة على إظهار أمنياته الدفينة إلا في خلوةٍ مع عالم السر، مستشعرا في هذا الإسرار رابطةً روحيةً وثيقةً وجوارا آمنا لا يُرام في مواجهة الشدائد " [33].

وينطبق على هذا المشهد ما ذكره علماء النفس من دلالات نفسية عن الإنسان عند وصوله إلى هذه المرحلة بقولهم: "إنّ الإنسان عندما يصل إلى هذه المرحلة يتصف بمظاهر الخوف والقلق من المستقبل والتفكير في المرحلة القادمة من حياته، ويتصف بتمسكه في الحياة والأمل الذي لا ينقطع لديه، ولكن ذلك بحسب نشأته في بداية حياته، فإذا نشأ في ظروف اجتماعية جيدة، ولا يتعرض في حياته إلى صدمات نفسية فإن ذلك يتضح في حالته النفسية عند وصوله إلى مرحلة أرذل العمر، أمّا إذا نشأ في ظروف صعبة، وتعرض لعدة صدمات نفسية في حياته، فإنّ ذلك يؤدي إلى إحباطه عند هرمه وعدم تكيفه مع ضغوطات الحياة ويتملل من حياته ويؤدي إلى انهياره فور تعرضه إلى أي صدمة نفسية" [34].

وقد لاحظنا ذلك جليًّا في شخصية سيدنا زكريا (عليه السلام) إذ إنه رغم كبر سنه، ولا يوجد أي من الأسباب التي تعطي له الأمل في الذرية إلا أنه (عليه السلام) لم يقطع الأمل؛ لأن نشأته كانت في طاعة الله تعالى؛ مما أدى إلى اليقين الصادق والإيمان الراسخ الذي استقر بقلبه (عليه السلام)؛ مما أدى إلى حسن ظنه بربّه.

المطلب الثاني: الدلالة النفسية في وهن العظم واشتعال الرأس بالشيب

وذلك في قوله تعالى: "قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا"[35].

و"تتفقُ رؤى المفسرين . وفي طليعتهم قتادة ومجاهد . على توصيف الحالة الفيزيائية التي آلت إليها بنية زكريا (عليه السلام) من خلال اقتران مفردتي (الضعف والنحول) بالمنظومة العظمية، بوصفها الدعامة المركزية والركيزة الأساسية التي يقوم عليها الهيكل البشري. ويحلل ابن كثير هذا الإقرار بالوهن بوصفه إفصاحا عميقا عن حالة من (التذلل والافتقار) التي استبدت بظاهر النبي وباطنه على السواء. ثم ينتقل هذا الخطاب النفسي إلى مرحلة (الاستظهار بسوابق الفضل الإلهي)، وهي اتكاء الداعي على "الرصيد التراكمي" من نعم الله وإحسانه في الماضي، وجعل ذلك التاريخ "ظهيرًا" وسندًا لتعزيز الثقة في نيل المطلوب حالًا ومستقبلًا. ويتجلى هذا في قوله تعالى: "وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا"[36].

فيما يُصطلح عليه بـ (الاستشفاع بالماضي لنيل المراد في المستقبل) وهو مسلك تعبدي يقوم على تقديم "توسل حالي" بصفات الله التي تجلت في أفعاله السابقة مع العبد؛ بحيث يُصبح الإحسان القديم بمثابة "الشافع" الذي يُرجى به تحقيق المستحيل[37]؛ فمن خلال نفي الشقاء ببركة اعتياد الإجابة في غابر

الأيام، صاغ زكريا (عليه السلام) تظلمه الوجداني بأسلوبٍ يستدعي كرم الله المعهود لتغيير واقعه المادي المأزوم [38].

وقال الإمام النسفي (رحمه الله) –واصفًا هذا المشهد–: "إنّ زكريا (عليه السلام) خاطب ربّه بإظهار ضعفه، وافتقاره إلى رحمته سبحانه وتعالى".

ففي قوله تعالى: "قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي" [39]، أي: ضعف العظم، وخصه؛ لأنه عمود البدن وبه قوامه، فإذا ضعف تداعى له سائر البدن وتساقطت قوته.

وفي قوله تعالى: "وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا" [40]، استعارة للمبالغة، ومعناه: أي: "أنّ الشيب قد فشا في رأسي، كما تشتعل النار وتتفرق، ولا أرى أفصح من هذا الكلام ولا أبلغ؛ لأنّ أصله: يا ربّ قد شخت، إذ الشيخوخة تشتمل على ضعف البدن وشيب الرأس، وفيه عدول عن التصريح إلى الكناية"[41].

وقال الإمام الطبراني في تصوير هذا المشهد: "الوهن: هو نقصان القوة، وقوله: "وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي"[42]، أي: ضعف مني، قال قتادة: شكا ذهاب أضراسه، وقوله تعالى: وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا" [43]، أي: شختُ وضعفتُ، ومن الموت قربتُ" [44].

قدّم الإمام الرازيّ تحليلًا دقيقًا للعلاقة بين بنية الجسد والحالة النفسية في مرحلة الشيخوخة، معتبرًا أن تخصيص (العظم) بالذكر في الآية يحمل دلالة برهانية على منتهى العجز؛ فالعظم هو أصلب مكونات الجسم وركيزته الحاملة، وإذا سرى الضعف إلى الحامل (العظم) فإنه بالضرورة يكون قد استبدَّ بالمحمول (سائر الأعضاء اللينة).

ويضيف الرازي بُعدًا آخر يربط فيه بين الظاهر والباطن؛ فظهور الشيب واستيلاؤه على الرأس ليس إلا علامةً خارجية تعكس تراجع القوى الباطنية للإنسان.

إنّ هذا الكشف عن الوهن الشامل يخدم الغرض النفسي من الدعاء، حيث يمثل قمة التجريد من الأسباب المادية والالتجاء الصرف إلى الحول والقوة الإلهية، مما يمنح الطلب توكيدًا روحيًّا نابعًا من تمام الانكسار والافتقار" [45].

ويؤيد هذه الأقوالَ علماءُ النفس عن التغيرات الفسيولوجية الحاصلة للإنسان عند وصوله الى هذه المرحلة: "يصاحب مرحلة الكبر عند الإنسان ضعف عام، فالإنسان يمر بثلاث مراحل رئيسة: ضعف ثم قوة ثم ضعف، ومن أهم ما يرتبط بهذه المرحلة التحديات العضوية التي من أهم مظاهرها الضعف

في الحواس وخاصة حاستي السمع والبصر، وتخلخل العظام وصعوبة المشي و أمراض المفاصل وترهل العضلات والكثير من الأمراض وغير ذلك من التغيرات العضوية، وبالتالي فإن كل هذه التغيرات تؤثر في نفسية الفرد فيبدأ القلق للاقتراب من الموت والشعور بوطأة المرض وعدم الكفاءة؛ لأنه يعلم أن الموت هو النتيجة الحتمية له" [46].

المطلب الثالث: الدلالة النفسية في الاعتراف بكبر سن زوجته (عليه السلام) وبشارته بالذريَّة

الدلالة النفسية في قوله تعالى: "وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا"[47]".

العاقر: هي التي لا تلد بطبيعتها بداية أو صارت عاقرًا؛ بسبب بلوغها سن اليأس. كما مرّ [48].

"ذهب الشيخ الشعراوي في تحليله اللغوي لطلب زكريا (عليه السلام) إلى أن اختياره لمفردة (الهبة) بدلًا من العطاء العام يحمل دلالة نفسية وإيمانية عميقة؛ فالهبة في جوهرها هي تفضلٌ محضٌ ومنحةٌ مجردة عن المقابل أو الأسباب المعتادة.

وبما أن المقدمات الواقعية لزكريا (عليه السلام) . من شيخوخة وعقم . كانت تؤكد استحالة الإنجاب بالمقاييس البشرية، فقد جاء الطلب بلفظ الهبة ليعلن صراحةً تعطيل قانون السببية والارتقاء إلى فضاء القدرة الإلهية المطلقة. فكأن المناجاة هنا تقرر حقيقة مفادها: أن هذا المطلوب ليس نتاجًا لمقدمات مادية أملكها، بل هو عطاءٌ لدنيٌّ يتجاوز عجز الوسائل إلى سعة فضل الوهاب " [49].

والذي يبدو لنا: أنّ سيدنا زكريا (عليه السلام) قد صور حاله وقدم رجاءَه وعرض ما يطلبه فتراه شيخًا كبيرًا قد بلغ من الكبر عتيًّا، لكن عند النظر إلى الأحداث التي سبقت دعوته (عليه السلام) قد استجاشت في قلبه الرغبة الفطرية العميقة حين رأى المعجزة الخارقة للعادة التي حصلت للربيبة الصديقة التي تكفل برعايتها زكريا (عليه السلام)، وهي مريم العذراء (عليها السلام)، وما رزقها الله تعالى بعيسى من دون أب، فأدى ذلك إلى تأجج شوقه (عليه السلام) إلى ولد يحمل لواء النبوة من بعده.

وذلك في قوله تعالى: "فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ"[50].

صور سيد قطب مشهد الاستجابة الربانية بوصفه ثمرةً طبيعية لذلك الاتصال الروحي العميق؛ حيث انبعثت البشارة من حضرة الغيب لتُطمئن القلب الطاهر الذي تجرد من الأسباب وعلق رجاءه بمشيئة الله وحدها.

ولم تكن البشارة مجرد إخبار بمولود، بل كانت صياغة لهوية كاملة قبل الوجود؛ فجاء اسم (يحيى) مقترنًا بمنظومة من الصفات النفسية والأخلاقية الرفيعة. فهو (السيد في قومه) و(الحصور) الذي يجسد أعلى درجات الضبط النفسي والقدرة على كبح جماح الشهوات والسيطرة على النزعات البشرية، فضلًا عن كونه نموذجًا للمؤمن المصدق بالوحي الإلهي، والنبي الذي يمتد صلاحه ليصير قدوةً في العالمين[51].

ونلاحظ في الآية الكريمة "استعمال أداة الاستفهام (أنى)؛ لأنّها تستعمل للتعجب، والتعجب هنا كناية عن الشكر والاعتراف بالعطية العزيزة الغير مألوفة، وسؤاله (عليه السلام) ليس من باب الشك في قدرة الله تعالى، إنما عن الكيفية التي يرزق بها الولد، فبين الله تعالى لزكريا (عليه السلام).

أدت هذه البشارة إلى حالة من الذهول المعرفي لدى زكريا (عليه السلام)؛ نتيجة المقارنة بين مقتضيات الواقع المادي —المتمثل في شيخوخته وعقم زوجته— وبين الوعد الإلهي المتجاوز للسنن. وقد جاء الرد الرباني ليحسم هذا التعجب بتقرير حقيقة 'الهوان واليسر'؛ فخالقُ الذات من العدم المحض ابتداءً لا يعجزه ترميمُ الصفات أو استعادتها بعد ذبولها.

إنَّ الاستدلال بخلق الإنسان أول مرة يمثل برهانًا عقليًّا ونفسيًّا على أنَّ القدرة التي أوجدت الكائن من (لا شيء) قادرةٌ بالضرورة على تطويع القوانين البيولوجية وإعادة الحيوية للأجهزة المعطلة، لتتحول الاستحالة المادية إلى واقعٍ ملموس بكلمة (كن)، في تأكيدٍ على أنَّ الإرادة الإلهية هي الحاكمة على النواميس وليست محكومة بها [52].

وقد "حلل سيّد قطب الحالة النفسية لنبي الله زكريا (عليه السلام) لحظة تلقي البشارة بوصفها حالة من (الإفاقة الوجدانية) هي لحظة "يقظة قلبية" تلي حالة من الضعف البشري، يدرك فيها العبد أن افتقاره التام وخضوع جسده لقوانين الفناء (أرذل العمر) هو البوابة الحقيقية لتدفق القوة الروحية والمدد الإلهي[53]؛ فبعد أن كان مستغرقًا في غمرة الرجاء وحرارة الدعاء، اصطدم فجأة بتحقق الوعد على أرض الواقع، مما ولّد لديه رغبة في استكشاف كيفية نفاذ الإرادة الإلهية وسط معوقات المادة.

ورأى سيّد قطب أن هذا التساؤل لم يكن شكًّا، بل هو انعكاس لشدة الفرح واللهفة النفسية لمولود يكون عضدًا له في تبليغ الرسالة وحماية حوزة الدين. ومن هنا، يستنبط سيد قطب درسًا تربويًّا في 'أدب العبودية'؛ مؤكدًا ضرورة إدراك الإنسان لحدوده البشرية القاصرة، فلا يحكم على قدرة الله المطلقة عن طريق تجاربه المحدودة، ولا يحصر المشيئة الإلهية في إطار (الممكن والمستحيل) المبني على علمه الضيق، بل عليه أن يسلّم للمشيئة التي تتجاوز كل القيود الذهنية والحسية [54].

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصّالحات، وتنال بفضل وجوده الرغبات، والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمدٍ، المبعوث بوافر العطايا والهبات، وعلى آله وصحبه وسلم.

فبعد البحث والاستقراء في ثنايا الآيات القرآنية، وجدت أن القرآن الكريم بإعجازه العلمي الرفيع قد بين لنا التغيرات النفسية التي تحصل للإنسان عند وصوله إلى أرذل العمر، ولكن بأسلوب موجز معجز، وبعد إمعان النظر فيما سطر وكتب، تلخصت لديّ نتائج مهمة، أوجزها كالاتي:

أوّلًا: إنّ التدرج الحاصل في دورة حياة الإنسان ما هو إلا سنة الله تعالى في خلقه، فكل مرحلة منها تصحبها عدة تغيرات، من ضعف إلى قوة ثم إلى ضعف بالتدريج يصحبه تراجع في التفكير والادراك، والتقلبات المزاجية والنفسية، وتدهور وضعف وهرم.

ثانيًا: إنّ مرحلة أرذل العمر مرحلة حاسمة في حياة الإنسان؛ لأنها الأخيرة قبل موته، لذلك ينبغي له أن يتزود بالأعمال الصالحة في فتوته؛ لئلا يفوته الأجر عند ضعفه وهرمه.

ثالثًا: ينبغي للإنسان ألّا يغترّ بما أنعم الله عليه من علم أو قوة بدنية أو عقلية وغيرها من مغريات الصفات التي تورث العجب في نفس الإنسان.

رابعًا: قد أكدت الرؤى التربوية والنفسية أنَّ الإنسان عند بلوغه العقد الرابع يصل إلى مرحلة (الاستقرار السلوكي) يُعرف بأنه "الثبات العملي" والميداني الذي يظهره صاحب الرسالة رغم الضغوط الوجودية وعوامل الوهن الجسدي. ويتمثل في استمرار زكريا (عليه السلام) في القيام بوظائفه التعبدية والاجتماعية في "المحراب" دون أن ينال اليأس من عزيمته[55]، حيث تتجذر الصفات والسمات الشخصية لتصبح جزءًا أصيلًا من كينونته يصعب تبديله أو الانفكاك منه؛ نظرًا لكونها نتاج تراكمات طويلة من التنشئة

والممارسة. ومن هنا، عدّ العلماء سنَّ الأربعين بمثابة (المنعطف الحاسم) والفيصل النهائي في مسيرة المرء؛ فهي المرحلة التي تنصهر فيها العادات لتتحول إلى طباعٍ راسخة، ترسم الملامح الختامية لشخصية الإنسان، وتحدد وجهته الأخلاقية، بناءً على ما غرس في أطواره العمرية السابقة.

خامسًا: إنّ الإنسان إذا وصل إلى مرحلة أرذل العمر، لا يستطيع التحكم في انفعالاته ومشاعره، وتبدو عليه مظاهر القلق والاكتئاب والخوف من المستقبل، ويميل إلى الانطواء على الذات.

سادسًا: إنّ الموت رحمة للإنسان؛ لأنه بكل الأحوال رحمة له؛ لئلا يتعذب بالأمراض والضعف والانكسار عند وصوله إلى هذه المرحلة.

سابعًا: إنّ الله تعالى أراد من هذه النصوص الكريمة أن يبين للعباد أن الدنيا ما هي إلا دار فناء، وأن العبد لا يملك من القوة ولا العقل ولا الجسد المعافي إلا بفضل الله ومنته تعالى على عباده.

ثامنًا: إنّ التغيرات البيولوجية الحاصلة للإنسان عند وصوله إلى مرحلة الهرم تؤثر في الانفعالات والدوافع النفسية له، مما يؤدي إلى ظهور أعراض القلق والإحباط واليأس والانقباض النفسي لديه، ولكن ذلك تبعًا للظروف والمتغيرات والنشأة التي ينشأ بها، إذ إنّ لهذه العوامل دورًا كبيرًا ومؤثرًا في شخصيته عند وصوله إلى هذه المرحلة.

تاسعًا: إنّ العلماء المفسرين قد بيّنوا لنا الدلالات النفسية لمرحلة الهرم عن طريق تدبرهم وإمعانهم النظر في النصوص القرآنية، وفق طريقة علمية تتوافق مع النظريات العلمية للتخصص الدقيق في علم النفس، وهذا مما يدل على ثراء علومهم وموسوعيتهم.

وآخر دعوانا "أنِ الحمد لله ربِّ العالمينَ".

الهوامش:

(1) سورة: الروم: الآية: 54.

(2) سورة طه، من الآية: 12.

(3) مقاييس اللغة، لأبي الحسين، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي (ت: 395هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: 1399 هـ -1979م: 2/ 259 مادة: دل، ومختار الصحاح، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (ت: 666هـ)، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية -الدار النموذجية، بيروت – صيدا، ط1، 1420هـ / 1999م،106.

(4) البحر المحيط في أصول الفقه، لأبي عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (ت: 794هـ)، الناشر: دار الكتبي، الطبعة: الأولى، 1414هـ -1994م: 268/2.

(5) المصدر نفسه: 51/1.

(6) تحليل السلوك التنظيمي، د. موسى المدهون ود. إبراهيم الجزراوي، مطبعة دار الملايين: 27.

(7) دلالة الألفاظ، د. إبراهيم أنيس، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية: 46.

(8) سورة: النحل، من الآية: 70، وسورة: الحج: من الآية: 5.

(9) سورة: الشعراء، من الآية: 111.

(10) العين، لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت: 170هـ)، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال: 8/ 180، وتهذيب اللغة، لمحمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبي منصور (ت: 370هـ)، تحقيق: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى، 2001م:302/14، ومقاييس اللغة:509/2، والنهاية في غريب الحديث والأثر، لمجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (ت: 606هـ)، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي، الناشر: المكتبة العلمية - بيروت 1399هـ - 1979م: 217/2.

(11) لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن علي أبي الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري (ت: 711هـ)، تحقيق مجموعة من المؤلفين، الناشر: دار المعارف -القاهرة: 11/ 281.

(12) جامع البيان في تأويل آي القرآن، لأبي جعفر، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، (ت: 310هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1420هـ -2000م: 18/ 570.

(13) الكشف والبيان عن تفسير القرآن، لأبي إسحاق، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، (ت: 427 هـ)، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق الأستاذ نظير الساعدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان الطبعة: الأولى 1422هـ -2002م: 8/ 135.

(14) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، (ت: 542هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار النشر: دار الكتب العلمية - لبنان، الطبعة: الأولى: 1413هـ-1993م: 409/3.

(15) البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، (ت: 745هـ)، تحقيق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر - بيروت، الطبعة: 1420هـ: 7 /486.

(16) علم نفس النمو (الرشد والشيخوخة)، للدكتورة بشرى أيوب شريبة، سنة النشر (2018-2019)، 173.

(17) يُنظر: لسان العرب، مادة (عقر).

(18) يُنظر: المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، تحقيق: صفوان داوودي، دار القلم، دمشق، ط1، 1992م، ص 573.

(19) يُنظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، مجد الدين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط8، 2005م، مادة (وهن).

(20) يُنظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، محمود بن عمر، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1987م، ج3، ص 4.

(21) يُنظر: مقاييس اللغة، ج4، ص 249.

(22) سورة: الحديد، الآية: 20.

(23) الروح، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد، شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت: 751هـ)، تعليق: إبراهيم رمضان، الناشر: دار الفكر العربي –بيروت، تاريخ الطبع: 1996م: 292، والتصوير القرآني للقيم الخلقية والتشريعية، لعلي علي صبح، الناشر: المكتبة الأزهرية للتراث، 254/1.

(24) سيكولوجية المسنين، للدكتورة هدى محمد قناوي، الطبعة الأولى: 1987م، الناشر: مركز التنمية البشرية والمعلومات –الجيزة –مصر: 56–57، وعلم نفس النمو من الجنين إلى الشيخوخة، عادل عز الدين الأشول، الناشر: مكتبة الأنجلو المصرية: 621.

(25) المنظم في تاريخ الأمم والملوك، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي: (ت: 597هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة: الأولى: 1412هـ –1992م: 275/1، والزيادة والإحسان في علوم القرآن، باب: علم تاريخ الأنبياء المذكورين في القرآن، جمال الدين محمد بن أحمد ابن عقيلة المكي (ت: 1150 هـ) الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت: 79.

(26) سورة: مريم: الآية:3.

(27) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس (القاهرة: دار الفكر العربي)، 722/8.

(28) النكت والعيون، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي الشهير بالماوردي (ت: 450هـ)، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت: 354/3.

(29) سورة: الأعراف: من الآية: 55.

(30) ينظر في أثر قتادة، الطبري، أبو جعفر، جامع البيان في تأويل آي القرآن، تحقيق: أحمد شاكر، 18/ 140.

(31) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: 187/5، والتفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د. وهبة الزحيلي: 57/16.

(32) يُنظر: إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، دار المعرفة، بيروت، 2005م، ج4، ص 312 (بتصرف).

(33) ظلال القرآن لسيد قطب (القاهرة –بيروت: دار الشروق، ط 17، 1412هـ): 2302/4.

(34) علم نفس النمو من الجنين إلى الشيخوخة: 625.

(35) سورة: مريم: الآية: 4.

(36) يُنظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن القيم الجوزية، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1996م، ج2، ص 442.

(37) يُنظر: التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م، ج16، ص 64.

(38) ينظر: تفسير الطبري: ج18، ص143، وتفسير القرآن العظيم، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطر اللخمي الشامي (ت:360هـ)، تحقيق: أحمد شاكر، ج18، ص143، وتفسير ابن كثير، ج5، ص188، وتفسير المنير: 58/16.

(39) سورة مريم، من الآية: 4.

(40) سورة مريم، من الآية: 4.

(41) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي: 325/2.

(42) سورة مريم، من الآية: 4.

(43) سورة مريم، من الآية: 4.

(44) تفسير القرآن العظيم للإمام الطبراني: 305.

(45) تفسير الرازي، فخر الدين، مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، (بيروت: دار إحياء التراث العربي)، 263/10.

(46) الأبعاد النفسية للمسنين، عبد المنعم الميلادي، الناشر: مؤسسة شباب الجامعة –مصر: 32.

(47) سورة: مريم، من الآية: 5.

(48) ينظر المطلب الثالث من المبحث الأول من البحث:6،7.

(49) تفسير الشعراوي (الخواطر)، الشعراوي، محمد متولي، (القاهرة: مطابع أخبار اليوم)، 9029/15.

(50) سورة آل عمران: الآيتان: 39–40.

(51) في ظلال القرآن: 2301/4.

(52) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 190/5–191، وتحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد لابن عاشور: 56/16، وقصص الرحمن في ظلال القرآن لأحمد فائز: 170/4.

(53) في ظلال القرآن، ج4، ص 2305.

(54) المصدر نفسه:394/1

(55) يُنظر: دستور الأخلاق في القرآن، محمد عبد الله دراز، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط10، 2001م، ص 158 (بتصرف).

المصادر والمراجع:

- **القرآن الكريم.**

1– الأبعاد النفسية للمسنين، عبد المنعم الميلادي، الناشر: مؤسسة شباب الجامعة–مصر.

2- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر جكني الشنقيطي (ت: 1393هـ)، الناشر: دار الفكر الطباعة والنشر والتوزيع بيروت – لبنان، عام النشر: 1415هـ -1995م.
3- أنباء القرى عن برنامج أحسن القصص، للدكتور أحمد عبيد الكبيسي، الإعداد للنشر والمداخلات: فاطمة محمد شنون، الناشر: مؤسسة الرسالة -بيروت.
4- الإنسان بين علو الهمة وهبوطها، علي بن نايف الشحود.
5- أيسر التفاسير الكلام العلي الكبير، جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر بن أبي بكر الجزائري، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة: الخامسة: 1424هـ -2003م.
6- البحر المحيط في أصول الفقه، لأبي عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (ت: 794هـ)، الناشر: دار الكتبي، الطبعة: الأولى، 1414هـ -1994م.
7- البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان بن أثير الدين الأندلسي(ت:745هـ)، تحقيق: محمد صدقي جميل، الناشر: دار الفكر-بيروت 1420هـ.
8- تاج العروس، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني أبو الفيض الملقب بمرتضى الزبيدي (ت: 1205هـ)، تحقيق: علي بشري، الناشر: دار الفكر العربي 1424هـ.
9- تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، محمد الطاهر بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت: 1393 هـ)، الناشر: الدار التونسية للنشر، سنة النشر: 1984م.
10- تحليل السلوك التنظيمي: د. موسى المدهون، ود. إبراهيم الجزراوي، مطبعة دار الملايين.
11- التصوير القرآني للقيم الخلقية والتشريعية، علي علي صبح، الناشر: المكتبة الأزهرية للتراث.
12- تفسير الشعراوي (خواطر)، محمد متولي الشعراوي (1418هـ) الناشر: مطابع أخبار اليوم، سنة النشر: 1997م.
13- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (774هـ)، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت الطبعة: الأولى – 1419 هـ.
14- تفسير القرآن العظيم، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطر اللخمي الشامي (ت: 360هـ).
15- تفسير القرآن العظيم، للإمام الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (ت360هـ).

16- تفسير القرآن الكريم (ابن القيم)، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت: 751 هـ)، تحقيق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية، بإشراف: الشيخ إبراهيم رمضان، الناشر: دار ومكتبة الهلال –بيروت. الطبعة: الأولى: 1410هـ.
17- التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب (ت: 1390هـ)، الناشر: دار الفكر العربي – القاهرة.
18- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د. وهبة بن مصطفى الزحيلي، الناشر: دار الفكر المعاصر – دمشق الطبعة: الثانية، 1418 هـ.
19- تهذيب اللغة، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبي منصور، (ت: 370هـ)، تحقيق: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى:2001م.
20- جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي أبو جعفر الطبري، (ت:310هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1420هـ -2000م.
21- حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، الشيخ محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي، الناشر: دار طوق النجاة – بيروت، الطبعة الأولى – 1421هـ.
22- دستور الأخلاق في القرآن، محمد عبد الله دراز، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط10، 2001م.
23- دلالة الألفاظ، د. إبراهيم أنيس، الناشر: مكتبة الأنجلو المصرية.
24- الراغب الأصفهاني وجهوده في اللغة، عمر بن عبد الرحمن الساريسي، الناشر: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.
25- الروح، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد، شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت:751هـ)، تعليق: إبراهيم رمضان، الناشر :دار الفكر العربي– بيروت، تاريخ الطبع: 1996م.
26- الزيادة والإحسان في علوم القرآن، الإمام جمال الدين محمد بن أحمد ابن عقيلة المكي (ت: 1150هـ) الناشر: دار الكتب العلمية– بيروت.
27- سيكولوجية المسنين، الدكتورة هدى محمد قناوي، الطبعة الأولى سنة 1987م، الناشر: مركز التنمية البشرية والمعلومات – الجيزة – مصر.
28- الصحة النفسية والعلاج النفسي للمسنين، حامد عبد السلام زهران، الناشر: عالم الكتب للنشر والتوزيع – القاهرة.
29- صحيح البخاري، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وسننه وأيامه، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر

الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، 1422هـ.

30- علم نفس النمو، محمد عبد الله العابد، الطبعة الأولى –ليبيا.

31- علم نفس النمو من الجنين إلى الشيخوخة، عادل عز الدين الأشول، الناشر: مكتبة الأنجلو المصرية.

32- العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت: 170 هـ)، تحقيق: د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال.

33- فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت: 1250هـ)، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب –دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى 1414هـ.

34- في ظلال القران العظيم، سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي، (ت:1385هـ)، الناشر: دار الشروق – القاهرة، سنة النشر: 1967م.

35- القاموس المحيط، الفيروزآبادي، مجد الدين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط8، 2005م.

36- قصص الرحمن في ظلال القرآن، أحمد فائز الحمصي، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الأولى: 1415 هـ -1995م.

37- قضايا الشيخوخة – التقدم في السن (دراسة اجتماعية نفسية)، خالد الطحان، الناشر: دار القلم– الكويت، 1404هـ.

38- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، محمود بن عمر، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1987م.

39- الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أبي إسحاق، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، (ت:427هـ)، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى: 1422هـ -2002م.

40- لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي، أبي الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري (ت: 711 هـ)، تحقيق مجموعة من المؤلفين، الناشر: دار المعارف – القاهرة الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة – 1414هـ.

41- ما قاله الملاحدة ولم يسجله التاريخ، طبائعيون، د. نور الدين أبو لحية، الناشر: دار الأنوار للنشر والتوزيع.

42- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (ت: 542هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار النشر: دار الكتب العلمية – لبنان الطبعة الأولى: 1413هـ- 1993م.

43- مختار الصحاح، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (ت: 666هـ)، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية –الدار النموذجية، بيروت – صيدا، ط1، 1420هـ / 1999م.

44- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن القيم الجوزية، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1996م.

45- مدارك التنزيل وحقائق التأويل، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي (ت: 710 هـ)، تحقيق: يوسف علي بديوي، الناشر: دار الكلم الطيب –بيروت، الطبعة الأولى – ١٤١٩هـ –١٩٩٨م.

46- مفاتيح الغيب، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت: 606 هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الثالثة – 1420 هـ.

47- مقاييس اللغة، لأبي الحسين، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي (ت: 395هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: 1399هـ –1979م.

48- المنظم في تاريخ الأمم والملوك، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي: (ت: 597هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، الناشر، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى: 1412هـ –1992م.

49- النكت والعيون، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي الشهير بالماوردي (ت: 450 هـ)، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت.

50- نمو الإنسان من مرحلة الجنين إلى مرحلة المسنين، آمال صادق وفؤاد أبو حطب، الناشر: مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الرابعة.

51- النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (ت: 606 هـ)، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي – محمود محمد الطناحي، الناشر: المكتبة العلمية – بيروت، 1399هـ –1979م.